

العبادة لا يمكن أن تؤدي إلا بمشقة، هذا شيء آخر، هذا من الله وليس بإرادتك. أما أن يكون أمامك طريقان: سهل وصعب، فتذهب إلى الصعب، فهذا ليس من شريعة الله، يقول العامة أول ما ظهرت السيارات: إن الحج على الإبل أجره كامل، وعلى السيارات نصف الأجر، وعلى الطيارات ربع الأجر! ويمكن يجيء شيء أسهل من الطيارات يكون على الشمن؟! هذا غير صحيح، بل نقول: إن هذا من نعمة الله على العبد. صحيح أن الرسول ﷺ نهى عن كثرة الإرفة، يعني: لا ينبغي للإنسان أن ينغمس في الترف حتى ينسى الخشونة، فكان ينهى عن كثرة الإرفة، ويأمر بالاحتفاء أحياناً^(١) وليس دائماً. يعني: ينبغي لنا أحياناً أن نمشي حفاة، حتى لو أن الناس شهروا بنا وانتقدوا هذا الشيء.

فنحن ما دام الله أنعم علينا، فإنه ينبغي لنا أن نسلك بأنفسنا التيسير. فإذا كان لا بد من العسر في أداء العبادة، فإن الأجر على حسابه. لو ذهبت مثلاً إلى صلاة الجمعة في ليلة باردة، وصار عليك مشقة، نقول: لا بأس بهذا، هذا لك فيه أجر، ومن الرباط الذي يرفع الله به الدرجات، ويمحو به الخطايا.

إسباغ الوضوء على المكاره. وما حصل لك من المشقة، فلك فيه أجر، ولو دار الأمر بين أن تسخن الماء، وأن تتوضأ به بارداً، فالتسخين أولى. ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله: يكره أن يتوضأ الإنسان بما اشتد حرّه أو برده، وعللوا ذلك بأنه يمنع كمال الطهارة.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الترجل (٤١٦٠).

القاعدة الرابعة والخمسون:

كثيراً ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته
المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة.

وذلك أن الله خلق الإنسان ورَكَبَ فيه القوى من السمع،
والبصر، والفؤاد، وغيرها؛ ليعرف ربّه، ويقوم بحقّه، فهذا المقصود
منها. وبوجود ما خلقت له تكمل ويُكمل صاحبها، وبفقد ذلك يكون
وجودها أضرّ على الإنسان من فقدانها، فإنّها حجّة الله على عباده،
ونعمته التي توجّد بها مصالح الدين والدنيا، فإذاً ما تكون نعمة تامة
إذا اقترن بها مقصودها، أو تكون محنّة وحجّة على صاحبها إذا
استعملها في غير ما خلقت له؛ ولهذا كثيراً ما ينفي الله تعالى هذه
الأمور الثلاثة من أصناف الكفار والمنافقين؛ كقوله: **﴿مُّصْمِّدُكُمْ عَنْمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقُلُونَ﴾** [البقرة: ١٧١]، **﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ﴾** [المائدة: ١٠٣]،
﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: **﴿لَمْ يَلْفُظُ لَا يَفْقَهُونَ إِلَيْهَا وَلَمْ يَأْتِنَ أَعْيُنُ لَا يُبَصِّرُونَ إِلَيْهَا وَلَهُمْ إِذَا مَأْذَانٌ لَا يَسْعَوْنَ إِلَيْهَا﴾** [الأعراف: ١٧٩]، فأخبر أن صورها موجودة؛ ولكن فوائدها مفقودة، وقال تعالى:
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْنِي الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ تَعْنِي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]،
وقال تعالى: **﴿إِنَّكَ لَا تُشِعِّمُ الْمَوْقَعَ وَلَا تُشِعِّمُ الْقُلُومَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُذْبِرِينَ﴾**
[النمل: ٨٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً. وقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِعَضٍ وَنَكْفُرُ بِعَضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ**

سَيِّلًا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١]، فثبت لهم الكفر من كل وجه، فلم يكن دعواهم الإيمان ببعض من يقولون: آمنا به من الكتب والرسل بموجب لهم الدخول بالإيمان؛ لأن إيمانهم بهم مفقودة فائده حيث كذبواهم في رسالة محمد ﷺ وغيره من الرسل الذين لم يؤمنوا بهم، وحيث إنهم أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم من الطريق الذي أثبتوا به رسالة من أدعوا الإيمان به؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَنَّاسٍ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَيَأْتُوهُ أُخْرًا وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٨]، لما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان، وهو المثير لكل خير، وكان المنافقون يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم؛ نفي عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثرته، ويشبه هذا ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفرض على الإيمان؛ كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَسْتَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمَّتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ حُسْنَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَاءْمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ **الآية رقم ٢** **أَلَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** [الأنفال: ٢ - ٤]؛ وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي أداء الفرائض والواجبات، ويقتضي اجتناب المحرمات، مما لم يحصل ذلك فهو إلى الآن لم يتم ولم يتحقق، فإذا وجدت هذه الأمور تتحقق؛ ولهذا قال: **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾**.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد

لكتب الله ورسله؛ قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: «وَلَمَّا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فِيْ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَأَهُ ظُهُورُهُمْ كَانُوهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [البقرة: ١٠١].
ونظير ذلك قول موسى عليه السلام، لما قال له بنو إسرائيل:
«أَنَّنَا جَنَاحُنَا هُرُوا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَنَاحِينَ» [البقرة: ٦٧]؛ فكما
أن فقد العلم جهل، فقد العمل به جهل قبيح.

التَّعْلِيق

خلاصة هذه القاعدة: أن الله تعالى قد ينفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائده، وهذا واقع في الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» [الأنفال: ٢١]، وقال الله تعالى في آيات كثيرة: «وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»، «لَا يَعْلَمُونَ»، «لَا يَفْقَهُونَ» وغير ذلك، وهم عندهم علم، وعند़هم عقل، ولكن لما لم ينتفعوا به؛ صار وجوده كعدمه. وقال النبي ﷺ: «لا صلاة بحضور طعام»^(١)، مع أن الصلاة توجد، ولو بحضور الطعام؛ لكنه نفها لانتفاء فائدها وثمرتها؛ لأن من يدافع الأخبين أو يحضره طعام يستنقذ إليه، فإنه سوف يصلى وقلبه معلق بهذا الشيء، منشغل بمدافعته، وتكون صلاته كأنها لا صلاة، إذا من هذه القاعدة نأخذ مضمونها: إن الشيء قد ينفي لانتفاء حقيقته، وهذا هو الأصل، وقد ينفي لانتفاء ثمرته وفائده، وهذا كثير وإن كان خلاف الأصل، لكن ما لا ينتفع به فوجوده كالعدم، بل إن

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة بحضور الطعام (٥٦٠).

وجوده أضرّ، فإن من لا يسمع إطلاقاً، خيرٌ من يسمع ولا ينتفع،
بلا شك.

فإذا قال لك قائل: كيف يقول الله لهؤلاء الأذكياء ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وما أشبه ذلك؟
نقول: لأنهم لم ينتفعوا بهذا العقل، فصار موجوداً كأنه
معدوم.



القاعدة الخامسة والخمسون:

يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويُكمل له ما شرع فيه
وعجز عن تكميله، ويُكتب له ما نشأ عن عمله.

التقليق

ثلاثة أمور:

الأول: يُكتب للعبد عمله الذي باشره، وهذا واضح: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُعَذِّبَ إِلَّا مِثْلَهَا﴾
[الأنعام: ١٦٠].

والثاني: يكمل له ما شرع فيه ولم يكمله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾
[النساء: ١٠٠].

والثالث: يُكتب له ما نشأ عن عمله: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاثة: صدقةٌ جارية، أو علمٌ يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

ويُكتب له ما تركه لعذرٍ وكان يعمله، وهو الموضع الرابع، مثل إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقیماً صحيحاً^(٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يُكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

فهذه أربعة أمور كلها تُكتب للإنسان. أما مجرد النية، فإنها تُكتب للإنسان إذا تمنى العمل الصالح ولم يقدر عليه، يُكتب له أجر النية. ومن ذلك ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، حين قسم الناس إلى أقسام؛ منهم: من آتاه الله مالاً، فينفقه في طاعة الله، فقال الآخر الذي لم يؤت المال: لو أن لي مثلَ ما لفلان لعملت فيه مثلَ ما عمل فلان. قال النبي عليه الصلاة والسلام: « فهو بنبيته، فهما بالأجر سواء»^(١)، سواء بالنية لا بالعمل؛ لأنه لم ي عمل، وليس من عادته أن ي عمله، فلو كان من عادته أن ي عمله لكتب له ما تركه منه لعذر.

فإن قلت: أليس قد قال النبي ﷺ: «إن في المدينة لأقواماً، ما سرتم مسيراً أو قطعتم وادياً إلا هم معكم»^(٢)? قالوا: يا رسول الله، وهم في المدينة؟! قال: «وهم في المدينة، حبسهم العذر». فهذا يقتضي أنهم يشاركون في أجر العمل، أو ظاهره أنهم مشاركون في أجر العمل.

فالجواب: أن يحمل هذا على منْ كان مِنْ عادتهم الخروج في سبيل الله، ولكن حبسهم العذر؛ فهو لاء يؤتون أجراً لهم كاملاً، أو يقال: «ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم»، يعني: بنبيتهم، فيكون لهم أجر النية، لا أجر العمل؛ فصارت الأقسام خمسة:

- ١ - من عمل عملاً كُتب له أجر.
- ٢ - ومن شرع فيه ولم يكمله كُتب له أجر.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب النية (٤٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر عن الغزو (٢٦٨٤).

٣ - وما نشأ من عمله، وإن لم يكن على باله حين الفعل؛ كُتب له أجر.

٤ - وما كان يفعله وتركه لعذر، يكتب له أجر.

٥ - وما تمناه ولم يقدر عليه كتب له به أجر، ولكن أجر النية فقط لا أجر العمل.

والدليل على أنه أجر النية فقط، أن الفقراء لما جاؤوا للنبي ﷺ يشكون، قالوا: يا رسول الله، سبق أهل الدثور بالأجور^(١) والدرجات العلي، ثم ذكروا أنهم يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ فأخبرهم أن يسبّحوا ويحمدوا ويكبّروا ثلثاً وثلاثين، دُبُر كل صلاة، وأنهم بذلك يدركون مَن سبّقهم؛ فلما سمع الأغنياء بذلك عمלו مثله، فجاء الفقراء فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا الأغنياء بما صنعوا، وعملوا مثله؛ فقال لهم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُّ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولم يقل لهم: لكم أجرهم بنيتكم، فهذا دليل على ما ذكرناه؛ لأن من تمنى العمل، وليس من عادته فعله، ولا يستطيع فعله، فإنه يكتب له أجره بالنية.

أما حديث: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»^(٢)، فيدلّ على نقص دينها، ولكنه نقص لا تُلام عليه، ويكفيها أجر الامتثال؛

(١) أخرج البخاري في كتاب الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (٨٠٧)، ومسلم في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة (٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٢٩٨)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٧٩).

كالإنسان الذي ليس عنده مال، فإنه ينقص دينه لعدم الزكاة، ولا يحصل له الأجر لعدم وجود السبب.

فإن قيل: هي كانت تفعل الصلاة والعبادات؟

فالجواب: نعم، لكن لما وجد المانع، طغى على السبب، فزال أثره بالكلية؛ فليس لها أجر النية ولا العمل، ما لها إلا أجر الامتثال بترك الصلاة. والفرق بينها وبين المريض الذي كان من عادته العمل، أن هذه - والله أعلم - لما منعها الشعاع ونهاها عن ذلك، صارت ليست محلاً للعمل الصالح؛ كالصوم يوم العيد، ولو صامه الإنسان لا يؤجر عليه، ولو تمنى أن يصومه لا يؤجر عليه، ولو نوى أنه يصومه - لولا المانع - لا يؤجر عليه، هذا هو الفرق.



فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن:

أما الأعمال التي باشرها العبد، فأكثر من أن تُحصى النصوص الدالة عليها؛ كقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿أَعْمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]، ونحو ذلك.

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها ولما يكملها، فقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْمَوْتِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فهذا خرج للهجرة وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأخبر تعالى أنه وقع أجره على الله؛ فكل من شرع في عمل من أعمال الخير ثم عجز عن إتمامه بموته، أو عجز بدني، أو عجز مالي، أو مانع داخلي أو خارجي، وكان من نيته لولا المانع

لأنَّمَّا فقد وقع أجره على الله، فإنما الأعمال بالنيات، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهَىٰنَّهُمْ عَنْنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه؛ سواء أكمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْكِي الْمَوْقَدَ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: باشروا عمله ﴿وَأَثْرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، التي ترتب على أعمالهم من خير وشر ...

التقليق

ويدل على هذا قوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيمة»^(١)، فالإنسان يُكتب له آثار عمله، حتى وإن لم يقصدها؛ زرع رجل زرعاً، أو غرس غرساً، فانتفع به من لم يخطر بباله أن ينتفع به فإنه يؤجر على ذلك، وإن كان لم يكن بباله حين غرس الغرس أو زرع الزرع، لكن لأنه نشأ عن عمله.



... وقال في المجاهدين: ﴿ذَلِكَ يَأْتِهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ذَلِكَمْ وَلَا
نَصَبَتْ وَلَا حَمَسَكَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْفَوْنَ مَوْطِنًا يَغْبِيُهُ الْكُفَّارُ
وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَذَابٍ إِلَّا كُثُبَ لَهُمْ يَهُدِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة .(١٠١٧)

يُضيّع أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [التوبه: ١٢٠]، فكل هذه الأمور من آثار عملهم. ثم ذكر أعمالهم التي باشروها، بقوله: **وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً** إلى آخر الآية [التوبه: ١٢١].

والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان؛ لأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكم من يتزوج بغير نية حصول الأولاد الصالحين، فيعطيه الله أولاداً صالحين، فإنه يتفع بهم وبدعائهم.

والثاني - وهو أشرف النوعين -: أن يقع ذلك بقصده، كمن علمانياً نافعاً؛ فنفس تعليمه وبماشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك فإنه من آثار عمله، وكم من يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج لأجل حصول الذريعة الصالحة، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله. وكذلك من يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمور دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع، فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي على هذا العمل، فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله الأخير أجرًا وعوضًا؛ فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، وراميه، والمُمِدّ له.



القاعدة السادسة والخمسون:

يرشد القرآن المسلمين إلى قيام جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يمكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقوم بها، ويوفر وقته عليها؛ ل تقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية، فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها؛ فالطريق إلى حصولها: ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد - الذي هو من أعظم مصالح الدين - والعلم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْرِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّتَنَقَّهُوا فِي الْأَدِينَ وَلِتُشَذِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبه: ١٢٢]، فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى، وأن القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت؛ وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَنَنِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْقَوْمَيْ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمُ اللَّهُ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُرَكَى يَنْهَا﴾ [الشورى: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات الدلالات على هذا الأصل الجليل، والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها؛ لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائراً في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمين

سلوك هذا الطريق لاستقامت أحوالهم، وصَلَحت أمورهم، وانجابت عنهم شرور كثيرة، فـالله المستعان.

التعليق

وهكذا الأمة الواحدة كل طائفة منها تقوم بمصلحة؛ لأن قيام الجميع بوظيفة ومصلحة واحدة متعدّر؛ إذ لو فرضنا أن الناس اتجهوا جميعاً لمصلحة واحدة معينة، لتعطلت المصالح الأخرى. وتركهم للمصالح كلية، أيضاً فساد. ولذلك نقول: يعتبر المؤمنون - وإن كانوا أفراداً متعددين - كأنهم جسد واحد؛ فالرجل للمشي، واليد للبطش. لو أن أحداً قال: سأجعل اليدين للمشي، والرجلين للبطش والأكل والشرب! طبعاً لا يمكن، كذلك الأصابع، كل أصبع له وظيفة خاصة يقوم بها، لا يمكن أن تجتمع الأصابع كلها على وظيفة واحدة، ولا يمكن أن تتخلى عن الوظائف، هكذا هو الجسد الإسلامي وهكذا يجب أن يكون المسلمون، كل واحد يسعى في مصلحة معينة تليق به؛ فمثلاً: الرجل ضعيف الجسم، قوي الفهم والذاكرة والحفظ، يكون طلب العلم له أفضل، والرجل القوي الجسم، لكنه بطيء الفهم والحفظ، تكرّر عليه المسألة أربعين مرة ما يحفظها إلا في خمسين مرة، إلا أنه شجاع مقدام متمرس في الجهاد، فهذا أفضل له الجهاد في سبيل الله. والرجل الآخر عنده حنكة في الصناعة، أو في الطب، أو في الزراعة؛ نقول له: اتجه لهذا، حتى تقوم الأمة الإسلامية بمقوماتها، فكلُّ يقوم بما يدرك ويتقن ويختص به. هذا الذي ذكره الشيخ - رحمه الله - صحيح وقاعدة نافعة، وقد ذكر المؤلف - رحمه الله - من القرآن أدلة، قال تعالى: **«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً»**، قوله: **«وَمَا كَانَ»**

يتحمل أن يكون مستحيلاً شرعاً، أو مستحيلاً قدرأً وكوناً، وأقل الأمرين أنه مستحيل شرعاً؛ لا يمكن أن يذهبوا جمياً للجهاد، بل بعضهم يبقى للعلم، وبعضهم يذهب للجهاد، **﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾** وزع الجهاد؛ فلا نقول: تخرج القبيلة الفلانية للجهاد، وبقية القبائل يبقون؛ بل نقول: من كل قبيلة، وفرقة، منهم طائفة؛ نأخذ من بني تميم، من قريش، من كذا، من كذا، طائفة؛ ليبقى طائفة يتلقون في الدين. وإذا تفقهوا في الدين، وحفظوا دين الله، جاءت الفرقة المجاهدة، فيندرون: **﴿وَلَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا لِأَثِيمِهِمْ لَئِنَّهُمْ يَخْذَرُونَ﴾** [التوبه: ١٢٢]. وعلى هذا، فالواو في قوله: **﴿لَيَسْأَفُوهُوا﴾** في الدين، تعود على القاعدين. والله عز وجل قد جعل الجهاد في سبيل الله عديلاً للضرب في الأرض للتجارة، فقال: **﴿عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مُّرْسَلٌ وَآخُرُونَ يَصْرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَفَوَّنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخُرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرِبُوا مَا يَسَّرَ اللَّهُ مِنْهُ﴾** [المزمول: ٢٠]، إلى آخره.

كذلك أيضاً الآية الثانية التي ذكر المؤلف - رحمه الله -، قال: **﴿وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾**، فقال: **﴿مِنْكُمْ﴾** لا كلّكم، وإن كان بعض العلماء يقولون: **﴿مِنَ﴾** بياناً، أي: ولتكنوا على هذا الوصف؛ أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. لكن المعنى الأول هو الذي عليه معظم الناس، وهو أنه يجب أن تكون الأمة الإسلامية أمة متفرغة لهذا الشيء؛ يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ومن المعلوم أن الدعوة إلى الخير لا بد أن يسبقها علم، وإلا كانت ضرراً؛ إذ إن الإنسان إذا دعا بدون علم، صار ضرره أكثر من نفعه غالباً. لا بد من العلم حتى يكون الإنسان داعياً إلى الله على بصيرة.

القاعدة السابعة والخمسون:

في كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض
وما فيها على التوحيد والمطالب العالية.

قد دعا الله عباده إلى التفكّر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آيات وعبرًا؛ فينبغي لنا أن نسلك الطريق المنتج للمطلوب بأيسر ما يكون، وأوضح ما يكون، وحاصل ذلك على وجه الإجمال أننا إذا تفكّرنا في هذا الكون العظيم عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه، هذا أمرٌ بدائيٌ؛ فتبقى أن الذي أوجده الأول الذي ليس قبله شيء، كامل القدرة، عظيم السلطان، واسع العلم، وأن إيجاد الآدميين في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم،...

التعليق

كيف عرفنا أنه الحي القيوم؟ لأنه لو لا حياته لم يوجد. والقيوم على وزن الفيقول، وهو من صيغ المبالغة، وهو القائم بنفسه، القائم على غيره. ووجه ذلك: أن السموات والأرض دائمًا تحتاج إلى من يقوم عليها، ولازم هذه الحاجة أن يكون الله تعالى قيوماً عليها دائمًا ﴿لَا تَأْخُذُمْ سَنَةً وَلَا نَوْمًّا لَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].



... وإذا نظرنا ما فيها من الإحکام، والإتقان، والحسن، والإبداع، عرفنا بذلك كمال حکمة الله، وحسن خلقه، وسعة علمه. وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية، التي لا تُعد ولا تُحصى؛ عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل، والبر، والإحسان، والجود، والامتنان. وإذا رأينا ما فيها من التخصیصات، فإن ذلك دال على إرادة الله، ونفوذ مشیئته، ونعرف من ذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه، وهذا شأنه، هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأوصاف العظام، الذي لا تنبعي الرغبة والرھبة إلا إليه، ولا يُصرف خالص الدعاء إلا له؛ لا لغيره من المخلوقات المربيّات المفترقات إلى الله في جميع شؤونها. ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحتنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها، وموادها، وأرواحها، قد مكَنَ الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها؛ عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يُصلح أحوالنا منها بحسب القدرة، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نضييف علم هذه الأمور واستخراجها إلى علوم باطلة بحجة أن الكفار سبقوا إليها وفاقوا فيها، فإنها كلها - كما نَبَهَ الله عليه - داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يعلم الإنسان ما لم يعلم.

التعليق

أما دلالة هذه المخلوقات على التوحيد، فمن جهتين:

الأولى: أن هذه الأشياء كلها لا تم إلا بازدواج شيئين، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ نَذَرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وأن افتقار كل واحدة من هذه المخلوقات إلى شيء آخر لتقوم العناصر دليل على وحدانية من جعل هذه الأشياء مفترض بعضها إلى بعض.

الثانية: أن هذه المخلوقات نظامها واحد، لا تضطرب ولا تتناقض، ولو كان لها خالقان، لكان هذا يخلق، أو يتصرف بمخلقاته بشيء يصاد تصرف الآخر، وإذا نظرنا إلى انتظام الكون علمنا أن مدبره وخالقه واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم إن المؤلف استطرد في هذه القاعدة إلى أنه يجب علينا أن لا نخلد إلى الكسل والخمول، وعدم التأمل، وعدم استخراج منافع الأرض التي قال الله تعالى فيها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُّوا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَلَكُمْ مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]. ولكن، مع الأسف، إن المسلمين أخلدوا إلى الكسل، وناموا، وأضاعوا أوقاتهم في حرب بعضهم ببعض، وقاتل بعضهم ببعض، حتى سبقتهم الأمم الكافرة، مع أنها تعمل هذا الشيء للدنيا فقط! ولو وُفق المسلمون للعمل بهذه الأشياء؛ لكانوا يعملونها للدنيا والآخرة، فهذه القاعدة مهمة عظيمة، وهي النظر في هذه المخلوقات العظيمة؛ من حيث الدلالة على خالقها، ووحدانيته، وما تتضمنه من أنواع صفاته؛ كالرحمة، والعلم، والحكمة، والقدرة وما إلى ذلك. والثاني: من جهة أنه ينبغي لنا أن نستعمل عقولنا وأفكارنا في استخراج منافعنا من هذه المخلوقات.

القاعدة الثامنة والخمسون:

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة
أراهم نصها في غيرهم من المستعدين للكمال.

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن، منها: لما أراد إظهار
شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلّمه أسماء كل شيء. ثم امتحن
الملائكة، فعجزوا عن معرفتها؛ فحيينئذ نبأهم آدم عنها فخضعوا
لعلمه، وعرفوا فضله وشرقه.

ولما أراد الله تعالى إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير؛
رأى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من لديه علم ومعرفة،
فعجزوا عن معرفتها. ثم بعد ذلك عبرها يوسف بذلك التعبير العجيب،
الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن
التعبير عنه.

التعليق

رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبعين
سنبلات خضر وأخر يابسات، ولم يذكر في السنبلات الأكل؛ لأن
السنبل لا يأكل بعضه بعضاً، بخلاف البقر؛ فالذين يعبرون الرؤيا
قالوا: لا نعرف، وقالوا: هذه أضغاث أحلام. وأما يوسف عليه
السلام، فعبرها تعبيراً عجيباً، فقال لهم: ﴿تَرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابِبًا﴾
كلها ريف وخصب وزرع كامل، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

مِمَّا نَأْكُلُونَ [يوسف: ٤٧]، وإنما أرشدهم إلى إيقائه في سبنله؛ لأن الحَبَّ إذا بقي في سبنله لا يسوس. **فَإِنَّمَا يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِهَادَاتٍ يَأْكُلُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ** [يوسف: ٤٨]، يعني: تحفظونه، وتحرزونه، وهذا يدل على أن الشيء عندهم صحيح، يتواصون بحفظه وتحصينه. **فَإِنَّمَا يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُقَاتَلُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** [٤٩]؛ فهذه أربعة عشر عاماً. وإنما قال: **فَإِنَّمَا يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُقَاتَلُ النَّاسُ**؛ لأنه فهم ذلك من الحصر، سبع، وسبعين، والعدد المحصور له متى؟ فصار الأمر كما ذكر عليه الصلاة والسلام.



ولما عارض فرعون الآيات التي أرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغله، فجمع كل سحّار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم، وألقى السّحرة عصيّهم وحاليهم، في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السّحر فـ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَهُوْهُمْ وَجَاءُهُوْ رَسِّخِرٌ عَظِيمٌ** [الأعراف: ١١٦]؛ فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلتف وتبتلع بمرأى الناس جميع حالهم وعصيّهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وصار أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه جميع أعدائهم، ومكرروا مكرتهم الكبرى للايقاع به؛ نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حرده، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات، وأعظم

النكايات، وتخليصه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر؛ كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَافِتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْكَدَهُ بِجُنُودِهِ لَمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [التوبه: ٤٠]. وقريب من هذا نصره إياه يوم حنين؛ حيث أعجبت الناس كثرةهم، فلم تُغْنِ عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحب، ثم ولوا مدربين، وثبت بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ فأنزل الله عليه سكينته ونصره في هذه الحالة الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه.

وكذلك ما ذكره الله من الشدائيد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتدَّ البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس؛ أَنْزَلَ اللَّهُ فرجَهُ ونصرَهُ لِيُصِيرَ لِذلِكَ مَوْقِعَ فِي الْقُلُوبِ، وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا المعنى: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليه من قبله مبلسين؛ فيحصل من آثار رحمة الله والاستبشار بفضله ما يملأ القلوب حمدًا وشكراً وثناءً على الباري تعالى.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل صدّها؛ كقوله: ﴿فَقُلْ أَرَأَيْتَ إِنَّ أَخْذَ اللَّهُ سَعْكُمْ وَأَبْصَرْكُمْ وَخَنَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، ﴿فَقُلْ أَرَأَيْتَ إِنَّ جَعَلَ اللَّهُ عَيْنَكُمْ أَيْلَ سَرَدَّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الآيات [القصص: ٧١]. وتلمح على هذا المعنى قصة يعقوب وبنيه حين اشتدت بهم الأزمة، ودخلوا على يوسف وقالوا:

قد **﴿مَسَّنَا وَهَلَّنَا الْصُّرُبُ﴾** الآية [يوسف: ٨٨]. ثم بعد قليل قال: **﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَأْمُونِينَ﴾** [يوسف: ٩٩]، في تلك النعمة الواسعة، والعيش الرغيد، والعزّ المتين، والجاه العريض؛ فتبارك من لا يدرك العباد مِنْ ألطافه ودقيق برّه أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يُذكّر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النعم لثلا تسترسل النفوس للجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعيم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها؛ كما ذكر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: **﴿أَوْلَمَا أَصَبَّتُكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبَّنَا مِثْلَهَا﴾** [آل عمران: ١٦٥]. وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد **﴿وَلَقَدْ نَصَرَنَا اللَّهُ يُبَدِّرُ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُهُ فَانْقُوا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ﴾** [آل عمران: ١٢٣]، ويبشر عبده بالخرج منها حين تباشره المصائب؛ ليكون هذا الرجاء مُخْفِفاً لما نزل من البلاء، قال تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبَيَّنَهُمْ بِإِمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** [يوسف: ١٥]. وكذلك رؤيا يوسف إذا ذكرها يعقوب رجا الفرج، وهب على قلبه نسيم الرجاء؛ ولهذا قال: **﴿يَبَيِّنَ أَذْهَبُوا فَتَسْكَسُوا مِنْ يُوشَّفَ وَأَجْبَهُ وَلَا تَائِشُوا مِنْ رَقْعَ اللَّهِ﴾** [يوسف: ٨٧]. وكذلك قوله تعالى لأمّ موسى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أُمُّ مُوسَى أَنَّ أَرْضِيَعَهُ فَإِذَا خَفِتِ عَلَيْهِ فَكَلِّفْهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْرِفْ إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمَرْسَلِينَ﴾** [القصص: ٧].

وأعظم من ذلك كله أنَّ وَعْدَ الله لرسله بالنصر، وتمام الأمر؛ هوَن عليهم المشقات، وسهَّل عليهم الكريهات، فتلقوها بقلوب مطمئنة، وصدور منشحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

القاعدة التاسعة والخمسون:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰٓئِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

ما أعظم هذه القاعدة والأصل العظيم الذي نصّ الله عليه نصاً صريحاً، وعمّم ذلك ولم يقيّده بحالة من الأحوال؛ فكل حال هي أقوم في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغر، والصناعات والأعمال الدينية والدنية، فإن القرآن يهدي إليها، ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحث عليها. ومعنى: «أقوم»، أي: أكمل، وأصلح، وأعظم قياماً وصلاحاً.

فأما العقائد: فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وغذاؤها وكمالها؛ فإنها تملأ القلوب محبة الله، وتعظيمها له، وألوهيّة وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعوا إليها: فإنه يدعوا إلى التحلّي بكل خلق جميل؛ من الصبر، والحلم، والعفو، وحسن الخلق، والأدب وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق، ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله، وحقوق العباد على أكمل الحالات، وأجلّها، وأسهلها، وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنية: فهو يرشد إلى سلوك الطرق

النافعة في تحصيل المصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته، والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة العبد مع أولاده، وأهله، وخدمه، وأصحابه، ومعامليه؛ فلا يمكن أنه وُجد ويُوجد حالة يتفق العقلاً أنها أقوم من غيرها وأصلح إلا القرآن يرشد إليها نصاً، أو ظاهراً، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية، وتفصيل هذه القاعدة لا يمكن استيفاؤه.

وبالجملة، فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السنة من الأوامر النواهي والإخبارات كلها تفصيل لهذا الأصل المحظوظ، وبهذا وغيره يتبيّن لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح، أو معنى نافع، أو طريق صلاح ينافي القرآن، والله تعالى ولبي الإحسان.

التعليق

بهذه القاعدة **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّّٰقِي هٰيَ أَقْوَمُ﴾**، يتبيّن لنا أن جميع القوانين المعارضة للقرآن كلها لا خير فيها، وأنه إن قدر فيها خير فما في القرآن خير، وأشدّ، وأثبت، **﴿وَلَا يَأْتُونَكَ يُمَثِّلُ إِلَّا حِشْنَتُكَ بِالْحَقِّ وَأَخْسَنَ تَفْسِيرًا﴾** [الفرقان: ٣٣]، **﴿وَلَوْ أَنَا كَبَّبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُو أَنفُسَكُمْ أَوْ أَخْرُجُو مِنْ دِيْرِكُمْ مَا فَعَلْتُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوْعَدُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنَزِّيلًا﴾** [٦٦] **﴿وَإِذَا لَأْتَنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾** **﴿وَلَهُدَّنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾** [النساء: ٦٦ - ٦٨].

والحاصل: أن كل ما كان أقوم في العقائد، والأعمال، والأقوال، والأخلاق، والسياسات، والمعاملات، والمترюكتات، والمنهيات؛ فإن القرآن يهدي إليه. ونأخذ من هذا قواعد عظيمة:

منها : إذا تعارضت مصلحتان ؛ إحداهما أنسع ، أخذنا بالأنفع .
ومنها : إذا تعارضت مفسدتان ؛ إحداهما أشدّ ، أخذنا
بالأخف . وعلى هذا فقسْ ؛ فكلما كان أقوم ، كان القرآن يهدي إليه ،
والعكس بالعكس . فكلما كان أعوج وأرداً ، وأسوأ ، فإن القرآن لا
يهدي إليه ؛ بل يهدي إلى ضده وعكسه .



القاعدة الستون:

من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه: أن القصص المبسوطة يُجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، والأمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتقرر فيه المطالب المهمة؛ وذلك أنه إذا أجملت القصة بكلام كالأصل والقاعدة لها، ثم وقع التفصيل بعد ذلك الإجمال، وقع إيضاح وبيان تام كامل لا يقع ما يقاربه لو فضلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال، وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف في قوله: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَخْسَنَ الْفَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَلِخَوْيِهِءَا يَأْتِي لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، ثم ساق القصة بعدها.

وكذلك في قصة أهل الكهف، لما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ أَيْنَتِنَا عَجَّبًا﴾ [٩] إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا رَبَّنَا مَنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [١٠] فَضَرَبُنَا عَلَى مَا ذَانُوهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [١١] ثُمَّ بَعْثَتْهُمْ لِنَعْلَمَ أَئِ الْجَنِينَ أَحْصَنَ لِمَا لَيْسُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩ - ١٢]، فهذا إجمالها قد حوى مقصودها وزُبدتها، ثم وقع بعده التفصيل بقوله: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْعَيْنِ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر القصة.